أدب الرحلات في كتابات أبو القاسم سعد اللّه
تاريخ الجزائر الثقافي نموذجا

زكريا بن علي
باحث جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

The degree of interest in its history peoples vary according to the degree of consciousness and then the extent of the growth of the culture, and active community if active intellectual life and treatment varied ideas and conflicting historians look for different sources of knowledge and their studies. Literature, we find the journey which is one of the most important literary branches that are related to various sciences.

Keywords:

The trip - consciousness - conflicting historians - Literature.

تختلف درجة اهتمام الشعوب بتاريخها حسب درجة الوعي عندها ومدى نمو الثقافة بها ، وينشط المجتمع اذا نشطت الحياة الفكرية وتنوعت الأفكار المعالجة و تضاربت نظرة المؤرخين حسب اختلاف معارفهم ومصادر دراستهم. فنجد أدب الرحلة الذي يعد من أهم الفروع الأدبية التي لها علاقة بمختلف العلوم فالجغرافي في كثير من الأحيان كان رحالة أو له معرفة بالرحلات ، و كذلك الأديب والمؤرخ و غير هؤلاء كثير .

وبالرغم من الأهمية البالغة لأدب الرحالة. إلا أن الاهتمام بها به يكاد ينحصر لدى فئة قليلة من الباحثين و المهتمين بمختلف الفنون والعلوم و المعارف في عالمنا العربي اجمع و في الجزائر بصورة اخص وأدق. لا كن هذا لم يمنع ثلة قليلة من هؤلاء من الاهتمام و الاشتغال بأدب الرحالة ورحلاتهم من المنظور الذي له علاقة باهتماماتهم و مجال تخصصهم ومن ابرز هؤلاء الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي تعددت اهتماماته كما تعددت مصنفاته. وهذا ما سنتطرق إليه على ضوء موسوعته العلمية تاريخ الجزائر الثقافي خاصة في جزأيه الثاني و السابع.

تعريف الرحلة:

إن لفظ الرحلة يطلق على عدة معاني فقد جاءت بمعنى السير والانتقال و الوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه. و بمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه ، أو اقتراب وقت الرحيل .ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر. ومنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر[1] ، فمشتقات كلمة رحل كثيرة ومتعددة ، وتدل كلها على الحركة ، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا حركة و انتقال [2] ومن المعاني التي وردت في لسان العرب الوجهة أو المقصد. كما حضي مصطلح الرحلة بشرح واف في العديد من المعاجم العربية فنذكر ما جاء به ابن منظور في لسان العرب(الترحيل و الرحال بمعنى الأشخاص والإزعاج يقال رحل الرجل إذا سار، و أرحلته أنا ، ورجل حول وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له....)[3] ، فالرحلة هنا بمعنى السير وورد لفظ الرحلة في موضع آخر بمعنى الانتقال

من مكان إلى مكان آخر) والترحل و الارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرحلة والرحلة اسم للارتحال للمسير ...)[4]

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلا أنها تصب في قالب واحد فقد عرفها الإمام الغزالي (بأنها نوع من مخالطة مع زيادة تعب ومشقة)[5] جاعلا الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد و التعب الناتجان من الانتقال على الرغم من انه لم يذكر ذلك .أما بطرس البستاني فيعرفها قائلا :(انتقال واحد أو جماعة من مكان غلى مكان آخر لمقاصد مختلفة و أسباب متعددة [6] ، لأن الرحلة لا تكون من دون غرض معين و إنما لها دوافعها الذاتية المرتبطة بالرحالة نفسه ، أو دوافع عامة مرتبطة بشؤون الأمة كلها.

في حين يعرفها صلاح الدين الشامي بقوله: «إن الرحلة تضل انجازا او فعلا او مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة ، أو إسقاط الحاجز الفاصل بين المكان الذي تبدا منه والمكان الذي تنتهي إليه)[7]

من خلال ضبطنا لمفهوم الرحلة في شقيها اللغوي والاصطلاحي تبين لنا أن كلا المفهومين لا يبتعدان كثيرا فهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة . و بفضل هذه الحركة يجني الفرد فوائد متنوعة فالشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو نفسه الشخص الذي يبقى في مكانه ، ولا يحرك ساكنا حيث قال المسعودي في هذا الصدد : "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي غليه من الإخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار و استخراج كل دقيق من معدنه وإنارة كل نفيس من مكمنه[8]

أبو القاسم سعد الله مؤرخا و ناقدا لقضاياه:

ولد أبو القاسم سعد الله في بلدية قمار التابعة لولاية وادي سوف في الفاتح جويلية **1930**م من أسرة فقيرة كانت تعيش على فلاحة النخيل [9] ، حفظ القرآن في سن مبكرة . و في سنة **1947**م سافر إلى تونس حيث قضى بالزيتونة سبع سنوات تحصل فيها على الأهلية سنة **1951**م ، ثم التحصيل سنة **1954**م.خلال تواجده بتونس نشر العديد من المقالات في كل من جريدتي النهضة والأسبوع التونسيتين بالإضافة إلى جرائد اهرى كالبصائر الجزائرية، و الآداب اللبنانية ، كما كان له دور في تأسيس رابطة القلم الجديدة سنة **1952**م برفقة شخصيات تونسية نذكر منهم الأستاذين الشاذلي زوكار و منور صمادح [10] .

بعد اندلاع الثورة التحريرية سنة **1954** عاد سعد الله إلى أرض الوطن و كانت وجهته العاصمة ، أين بدأ مهنة التدريس بمدرسة الثبات بالحراش ، ثم انتقل إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة بضواحي العاصمة . وعلى اثر الظروف التي كانت تعيشها الجزائر قرر سعد الله الرحيل إلى مصر من اجل رفع مستواه العلمي و كان ذلك في أكتوبر **1955** م [11] .

عاش سعد الله حياة الترحال قصد طلب العلم فتحصل على الماجستير سنة **1962** م ثم الدكتوراه ثلاث سنوات بعد ذلك [12] . كان يتقن عدة لغات فنذكر منها الفرنسية و الانجليزية حتى الألمانية والفارسية ، تنوعت وظائفه التعليمية فنجد أنه شغل منصب أستاذ مساعد في التاريخ بجامعة ويسكنسن بأمريكا بين عامي **1965**–**1967** م ثم أستاذ بجامعة التاريخ بالجزائر ، و جامعة آل بيت من **1996**م إلى سنة **2000**م.

إن المتتبع لحياة سعد الله العلمية لوجدها زاخرة و متنوعة في مناحي عديدة و ما يبينها لنا زياراته لجامعات عدة كجامعة منيسوتا وجامعة ميشيقان جامعة الملك عبد العزيز و جامعة دمشق و عين شمس . كما حاز عل عدة جوائز تقديرية و تشريفية كعربون شكر و عرفان لجهوده العلمية في إطار الرقي بالبحث [13].فهذه هي اذن شخصية الأستاذ سعد الله الذي بوفاته فقد الجزائر احد اعمد الأدب و التاريخ الجزائري و المغاربي فرحم الله استأذنا القدير و الجليل.

معلمة تاريخ الجزائر الثقافي :

تكمن قيمة الأعمال العلمية في مضامينها و محتوياتها خاصة إذا جاءت هذه الأعمال متضمنة لمواضيع علمية جديدة و سامية و ذات قيمة عالية ، و هذا ما يمكن إطلاقه على معلمة تاريخ الجزائر الثقافي لمؤلفها الأستاذ أبو القاسم سعد الله ، إذ تعتبر هذه الأخيرة بمثابة الإنتاج العلمي الراقي الذي اغني رفوف المكتبات الوطنية الجزائرية بفضل ما احتوته من معلومات قيمة . فمضمون المعلمة يندرج إجمالا في قسمين الأول من هاذين القسمين يخص العهد العثماني و ينقسم بدوره إلى جزأين ، فالجزء الأول اشتملت فصوله على تراث القرن 9هـ/ 15م و التيارات التي عرفها والمؤثرات المتحكمة فيه. بالإضافة إلى ما حضي به من المؤسسات الثقافية وواقع التعليم و رجالاته ، و آراء و مواقف بعض العلماء والمرابطين . والجزء الثاني تناول واقع العلوم الشرعية وكتب النوازل والفتاوى والفرائض و علوم اللغة والشعر والنثر والتاريخ والتراجم والرحلات والعلوم و الفنون.

أما بخصوص القسم الثاني من المعلمة فيتمحور حول الفترة الاستعمارية من 1830م إلى اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م ، إذ يضم هذا القسم ستة أجزاء ابتداء من الجزء الثالث الذي يحتوي على ثلاث فصول تدور مواضيعها حول التعليم بالمدارس القرآنية و المساجد، و الزوايا و المدارس الحرة بالإضافة إلى التعليم الفرنسي و المزدوج (العربي والفرنسي) ، ثم يأتي الجزء الرابع الذي يضم بدوره ثلاثة فصول تختص بالحديث عن الطرق الصوفية و السلك الديني و القضائي[14]. أما الجزء الخامس فتتمحور فصوله الأربعة حول المعالم الإسلامية و مؤسسات الأوقاف و المنشآت الثقافية من صحافة و مطابع و نواد و مكتبات ومسرح و موسيقى و ما ترتب من جراء هجرات الجزائريين نحو الأقطار المجاورة.

ثم يأتي الجزء السادس الذي اختص بالدراسات الاستشراقية من نشاط الهيئات العلمية و مشاريع التنصير كما أكد في هذا المجال مكانة الترجمة و ميلاد النخبة المتفهمة [15]للواقع الاستعماري ، وبروز التيارات الدخيلة على المجتمع الجزائري من طرف المنادين بالفرنسية و الاندماج في المجتمع الفرنسي. و يلي هذا الجزء السابع الذي اختص بجميع أصناف العلوم الدينية وأنواع المعارف الاجتماعية و التجريبية بالإضافة إلى التاريخ والتراجم والرحلات[16] . كما تطرق في الجزء الثامن لضروب المعرفة التي شهدتها الجزائر خلال الفترة الاستعمارية إذ خصص فصوله الثلاثة للمعارف اللغوية و ضروب النثر الأدبي والشعر والفنون الجميلة.أما الجزء التاسع فقد خصصه المؤلف لتوظيف الفهارس المختلفة من فهرس الأشخاص و الأماكن و المدارس والجماعات والأحزاب و المؤسسات ،

بالإضافة إلى ضبطه للملاحق و توظيف اللوحات المعبرة عن واقع الثقافة [17].

لقد أكدت الأواسط العلمية على أن هذا العمل و المجهود هو موسوعة تراث و مدونة معارف زاخرة أحاطت بحياة الثقافة الجزائرية. لذا فان القارئ و المتمعن في المواضيع التي اختارها لنا الدكتور أبو القاسم سعد الله في معلمته تمكن الدارسين و الباحثين من تكوين فكرة متكاملة عن هذا الإنجاز الثقافي و تساعد كل المقبلين على هذا الإنجاز الوقوف على مكامن الإبداع فإذا ما احدنا بعين الاعتبار الطريقة التي عالج بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله المعلومات و كيفية تناولها ، و عرض أحداثها لاستنتجنا قيمة هذه الخاصية و الميزة بحيث انه استطاع أن يجمع شتات المعلومات وترصد مختلف الأفكار من مصادرها المتنوعة و مضامينها المتعددة من مصادر أولية و مراجع حديثة و مخطوطات قيمة، كل هذا كان قائم بتعامل مباشر مع اللغة و هذا ما يتضح من جزلة للخط وصفاء اللغة و سلاسة العرض و رشاقة الأسلوب [18]

أما من حيث تعامله مع النتاج العلمي للفكر الغربي وانطباعات الدراسات الفرنسية و توجهاتها [19]، فقد كان يتعامل معها من منطلق الشخصية المثقفة التي تخدم البحث في إطاره الموضوعي و هذا ما أكده لنا الأستاذ ناصر الدين سعيدوني عندما صرح قائلا **(لم يكن فجا معاديا لمن خالفه و لا مقتبسا متجنيا على غيره. و لم يعلق القضايا التي آثرها و حتى النتائج التي توصل إليها على مشجب الاستعمار بقدر ما حاول تحليلها**

بنظرة محايدة و نفس متفتحة...")[20]: ومن خلال هذه الشهادة نتوصل إلى مدى الموضوعية التي تحلى بها أستاذنا القدير أبو القاسم سعد الله.

إن ما يمكن الإشارة إليه بخصوص كتاب تاريخ الجزائر الثقافي هو فهم الأحداث و عرض الوقائع في الإطار العام للتاريخ الجزائري ، إذ حاول سعد الله أن يعبر على فهمه للتاريخ وتقييمه للثقافة انطلاقا من حصيلة قراءات تجاوزت نصف قرن و هذا ما يلاحظه المتتبع لنتاج أبو القاسم سعد الله في معالجته و نظرته لماضي الجزائر .[21]

و ما يتوجب علينا ذكره في هذا التعريف ما حصره أبو القاسم سعد اله من إشكاليات لا يمكننا إغفالها أولها ما يتعلق بالمسالة الثقافية في التاريخ الجزائري فكرا و سلوكا و ممارسة[22] و الثانية البعد الزمني و المجال الجغرافي للمجال الثقافي الجزائري[23] والثالثة تدور حول منهج البحث الذي التزم به الأستاذ[24] والملاحظة الأخيرة و التي لا يمكن للباحث المدقق التقليل من أهميتها آفاق التنظير التاريخي الذي انتهى إليه.[25]

أدب الرحلات في كتابات أبو القاسم سعد الله :

قام الأستاذ سعد الله بعرض إسهامات الجزائريين في كتابة الرحلات و فصلها كل على حسب الفترة الزمنية التي عاشها أصحابها و لاسيما القرن الثامن عشر، حيث فصل مجالات كل رحلة أي كل رحلة على حسب توجهات أصحابها فمنها ما كان نتيجة أداء مناسك الحج و بالتالي افردها في خانة الرحلات الحجازية ، و أخرى كانت توجهات أصحابها علمية.

كما قام بذكر ما امتازت به كل فترة من خلال التطرق إلى رحلاتها فبدأ بالعهد الذي سبق الدخول العثماني في ذكر رحلة كل من التوجيبي

التلمساني و أحمد المقري الذي ألف رحلة لجده محمد المقري التلمساني في كتابه أزهار الرياض ن كما حدثنا أبو القاسم سعد الله عن رحلة أكد على أنها في عداد الآثار المفقودة و هي رحلة **أحمد القسنطيني** المعروف **بابن قنفد** [26] ، و كما ذكرنا في السابق فإن تقسيمات أبو القاسم سعد الله للرحلات ابتدأها من العهد العثماني مصنفا إياها كل على حسب مبتغى صاحبها فنذكر :

أ- الرحلات العلمية:

نذكر في هذا المجال كل من رحلة عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين ، إذ بعد وفاة والده اتجه لعدة بلدان قصد طلب العلم فنذكر توجهه غلى المغرب و بلاد السودان [27] وبعد مدة غياب عن الديار ناهزت **20** سنة عاد ليقص ما شاهده وما رأى وتحصل عليه من علم.

ب-**الرحلات المغربية** :

صنف أبو القاسم سعد الله رحلة **عبد الرزاق بن حمادوش** ضمن الرحلات المغربية الغير المكتوبة اذ كانت هذه الرحلة قائمة على طلب العلم و التجارة قصد كسب الرزق [28]، فكانت من مدينة الجزائر مرورا بتطوان و مكناس و فاس ثم تطوان فالجزائر [29] . كما تطرق إلى شخصية أخرى كانت على منوال عبد الرزاق بن حمادوش و هو **محمد الزجاي** الذي يعد من أبرز علماء تلمسان و قد نسبت إليه رحلة عرفت باسم الرحلة الفاسية [30] ، و يضيف لنا الأستاذ في هذا الجانب من الرحلة ، رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء ، إذ تعد هذه الأخيرة على حسب ما أفرد المؤرخ أبو القاسم سعد الله في غاية من

الأهمية إذ تعطينا وصفا عاما للصحراء بقراها وواحاتها وسكانها ، وعاداتهم ، وتقاليدهم.

ج- **الرحلات الحجازية :**

جاء ذكر الرحلات الحجازية بقلم الأستاذ سعد الله بشقيها على حسب تصنيفه لها فنجد الرحلات الحجازية الشعرية و النثرية.

1- الشعرية :

أكد أبو القاسم سعد الله أن معظم الرحلات الشعرية هي من الغرب الجزائري إذ كانت تكتب تارة بشعر فصيح و تارة أخرى بشعر ملحون ، فممن كتبوا بالصنف الأول نجد قصيدة **محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني** التي انتهى من كتابتها في **1152**هـ ، ونجد ما كتبه **عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي** بخصوص رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة في قصيدة مطولة و كان ذلك سنة **1063**هـ[31] أما ما يدخل في إطار الشعر الملحون فنذكر قصيدة محمد بن مسائب التلمساني في القرن الثاني عشر هجري ، بالإضافة إلى قصيدة ابن التركي و الزناقي[32] .

2- النثرية :

إن أهم رحلة ذكرها الأستاذ في هذا المجال هي رحلة الورتلاني و رحلة أبي راس الناصري[33] ، و يضيف فيما بعد رحلة ابن عمار المسماة «نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب"[34]

-رحلات الفترة الاستعمارية:

لقد عمل الكثير من الرحالة في خدمة الاستعمار الفرنسي في إطار الجوسسة قصد سرد أخبار المناطق التي مروا بها لصالح الفرنسيين كي يسهلوا على هؤلاء الولوج إليها و السيطرة عليها.وهذا ما توصلنا إليه من خلال قراءتنا للعديد من الرحلات التي دونها الأستاذ سعد الله في الجزء

السابع من معلمة تاريخ الجزائر الثقافي أين اختص في الحديث عن رحلات الجزائريين أثناء الحقبة الاستعمارية ومن هذه الرحلات نذكر:

- رحلة **الحاج بشير** : حيث يذكر الأستاذ سعد الله أن هذه الرحلة كانت حوالي **1867**م و قد تم تدوينها ن طرف أحد الفرنسيين الذي قام بالجلوس و الاستماع إلى صاحب الرحلة على حلقات (35) ، و ما لفت انتباه المدون لهذه الرحلة هو تسبسب الأفكار و الذاكرة القوية التي كان يتمتع بها الحاج البشير.
- رحلة **إسماعيل بوضربة** إلى غات إذ تعتبر هذه الرحلة من اهم الرحلات خاصة وأن إسماعيل بوضربة كان مكلفا من طرف الحاكم العام راندون ، و ما يبرز لنا أهمية هذه الرحلة اهتمام الفرنسيين أنفسهم بما حملته في طياتها بخصوص الصحراء و نشاط الطريقة السنوسية (36) . و بالمثل نجد رحلة مصطفى بونمان الذي كانت وجهته هو الآخر الصحراء ، بل وحتى تكوينه العلمي يشبه تكوين إسماعيل بوضربة بالإضافة إلى توجهاته في خدمة الإدارة الاستعمارية (37) .
- رحلة الطيب بن براهيم و التي كانت حوالي **1885**م إذ يذكر لنا سعد الله أن علاقته بالفرنسيين كانت وطيدة، و ما يوضح لنا ذلك الملاحظة التي أبداها مترجمو رحلة محمد الطيب بن براهيم بخصوص أهميتها كذكره مثلا الكتابة الليبية القديمة التي كانت محل اهتمام الفرنسيين (38) .

- رحلة محي الدين بن مصطفى [39]: تدور مجريات هذه الرحلة حول تنقل محي الدين إلى الحجاز عن طريق وهران ، و ما يمكن ذكره بخصوص هذه الرحلة هو اندثار بعض صفحاتها نتيجة لعدة ظروف كانت سائدة آنذاك [40] .ونجد من الشخصيات الكثيرة الترحال ما أبدعوا في تدوين تنقلاتهم كالرحالة محمد العربي أبو حامد المشرفي الذي جال و طاف كل من الجزائر و الغرب و الحجاز [41].

- رحلة خليل بن صالح العمري الخالدي التلمساني المسماة الرحلة الحسنية المؤلفة من **605** بيت شعري و التي تدور وقائعها حول رحلة السلطان الحسن الأول إلى تافيلالت عام **1311**هـ [42].

- رحلة إسماعيل حامد المدونة بالغة الفرنسية و الموسومة برحلة المغرب و كانت سنة **1899**م و ما يميز هذه الرحلة أنها جاءت لخدمة الاستعمار الفرنسي قصد بسط سيطرته على الغرب الأقصى [43].

- رحلة القايد ابن الشريف و تصنف هذه الرحلة ضمن الرحلات الحجازية حيث وصف من خلال زيارته البقاع المقدسة أحوال المهاجرين المغاربة عموما و الجزائريين خصوصا ذاكرا لعاداتهم متهجما عليهم من جراء سلوكهم على حسب ذكره و مادحا في نفس الوقت سياسة الحكومة الفرنسية في الجزائر [44] .

- رحلة ابن عبد الله الحاج العربي و التي جاءت تحت عنوان الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز [45] ، ورحلة محمد الحافظ المصري التي خصت بذكرها للزوايا التيجانية و كانت سنة **1356**هـ/ **1937**م ،وتنسب هذه الرحلة إلى صاحبها محمد العروسي السوني.

- كما نجد رحلة الشيخ محمد الموسوم الذي خص رحلته بذكر شيوخه خاصة و أنه كان رئيس الطريقة الشاذلية في قصر البخاري ن ورحلة شعيب بن علي الجليلي المسماة)رحلة المشرق و المغرب....و من خلقه العظيم عن حاله يعرب(و رغم كل هذا فإن رحلته حتى الآن مجهولة التفاصيل (46).

- رحلة مسعود الجباري و هو من خيرة المترجمين الذين خدموا الفرنسيين ، حيث توجه هذا الأخير للتحري في قضية هلاك البعثة الفرنسية في الصحراء و جاءت رحلته تحت عنوان " الناجون من بعثة بلاترز﴾ و يميز هذه الرحلة انها كتبة باللغة الفرنسية سنة **1895**م.

- رحلة الحكيم محمد بن العربي غلى الأندلس و هو احد خريجي المدرسة الفرنسية في مجال الطب ، فلم يذكر أي شيء بخصوص رحلته نحو بلاد أجداده كما زعمت الكتابات بشأنه (47).

- رحلة الشيخ أحمد المصطفى بن عليوة و المعروفة برحلة ابن عليوة و التي وصف من خلالها تنقله من تونس ثم ليبيا متجها إلى استانبول مبينا أحداث مهمة مرت بها الخلافة حينذاك اثر الانقلاب و تدهور الحياة السياسية ن فكان متهجما في وصفه الحالة السياسية التي كانت عليها استانبول (48).

- رحلة **الشيخ يذير** و هي مجهولة في بعض الجوانب ، و رحلة المكي بن عزوز حيث يذكر سعد الله بشأن هذا الأخير أن له رحلة جزائرية وأخرى باتجاه زاوية الهامل ، لا كن الثانية هي محل شك رغم أن اسعد الله أكد على عدم الاضطلاع على كلتاهما. و نذكر من الرحلات أيضا

الرحلة المعنونة بمشاهدتي في الجزائر لصاحبها **محمد بلحاج محمد الساسي** والراجح انه دونت في عام **1368**هـ/ **1949**م و هي رحلة خصت عدد من المدن الجزائرية

- ومن الرحلات التي ناشدت السياسة الفرنسية ، رحلة **أحمد ولد القاضي** و هذا ما يستخلصه القارئ من أول نظرة لعنوانها "الرحلة القادية في مدح فرنسا و تبصير البادية" و كانت هذه الرحلة في سنة **1878**م [49] ، ونذكر في هذا الصدد أيضا رحلة ابن صيام باتجاه فرنسا سنة **1852**م ، اذ يعد صاحب الرحلة من المؤيدين لسياسة فرنسا و من الذين خدموها على حساب أبناء الملة و البلد الواحد كمناهضة ابن صيام لثورة اولاد سيدي الشيخ عام **1864**م [50].

و لا ننسى أهم رحلة و هي رحلة **ابن علي الشريف** إلى فرنسا و التي تزامنت مع رحلة **ابن صيام** ، حيث ذكر في رحلته واقع الحياة الثقافية والاجتماعية لدى الفرنسيين و ضرورة انخراط الجزائريين و التحضر على حسب مفهومه و الاندماج في المجتمع الفرنسي ن كما ذكر امورا أخرى تخص جوانب الحياة اليومية.لقد ترقى محمد السعيد بن علي الشريف لأعلى المراتب ، وقامت الحكومة الفرنسية بتكريمه نظرا للمجهودات التي كان يقدمها للإدارة الاستعمارية [51] .و آخر رحلتين ذكرهما لنا الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحلة الرؤساء العرب التي كتبها **محمد الفكون** ، و التي تخص هجرة بعثة جزائرية مكونة من الأعيان إلى فرنسا عام **1902** و رحلة أخرى سماها الرحلة الأزهرية و هي منسوبة للشيخ صالح بن مهنة ذلك أن صاحبها خريج جامع الأزهر [52]. و مع كل هذا فإن الأستاذ سعد الله يشكك في صحتها ويعتبرها نوع من أنواع المذكرات التي دونت.

منهج سعد الله في كتابة الرحلات:

تتميز كتابات سعد الله في جانبها العلمي بالدقة و هذا ما أهل الروح العلمية التحليلية السمة الغالبة عليها ، إذ يتجلى للقارئ أو الباحث أن صاحبها يهتم في العديد من الأحيان بذكر ما يرد من أحداث و وجهات نظر دون التطرق إلى التعليق على كثير من الإحكام الواردة فيها ، أو يتخذ منها موقفا صريحا ، و الواقع أن هذا راجع إلى النهج المتبع من طرف سعد الله حتى يسمح للباحثين و الدارسين الاستنتاج و التوصل إلى ما يمكن استخلاصه و الحكم عليه.

و إذا ما أردنا إبراز ما نحن في صدد التصريح به يمكننا أن نستدل بما ورد في الجزء السابع من تاريخ الجزائر الثقافي إذ تحدث الأستاذ سعد الله عن رحلة **القايد بن الشريف** الذي يصف فيها الحكومة الفرنسية على أنها مثالية مثلما جاء بها القرآن الكريم. و في هذا الصدد يصرح الأستاذ بطريقة غير مباشرة قائلا :(**و يبدو أن الرحلة تخدم المصالح الفرنسية ،أو على الأقل تسير في الاتجاه الرسمي للحكومة العامة في الجزائر)** ، و هنا يمكن للمتتبع أن يستنتج دون أي صعوبة أن هذا الرحال عميل الإدارة الاستعمارية و هذا دون أن يصر سعد الله بذلك.

و ما يمكن استخلاصه من جل ما ذكر دقة منهج سعد الله في قضية ذكره للرحالة و رحلاتهم ، إذ يتسم منهجه بالترابط و التسلسل في الأفكار و النصوص و التحليل. أما بخصوص الشواهد التي ذكرها فهي متنوعة وعديدة مما يؤدي إلى دقة الأحكام التي يصرح بها [3 5]، و السمة الغالبة في منهج سعد الله أنه لا يكتفي بعملية السرد التاريخي للرحلات و إنما

تجاوز إلى أبعد من ذلك بحيث يصف الظروف الاجتماعية وحتى السياسية و الاقتصادية لرحالة نفسه.

الإحالات :

(1)- عواطف محمد ،يوسف نواب ، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع و الثامن هجريين : دراسة تحليلية مقارنة ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، باريس ، 1996 ، ص 40.

([2])-ناصر عبد الرزاق، الموافي ، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ،ط1، مكتبة الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1995 ، ص 23.

([3])-ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد 3 ، ج 18 ، ص 1609.

([4])-نفسه ، ص 1609.

([5])-أبو حامد أحمد بن محمد ،الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1986 ، ج2 ، ص 273.

([6])-بطرس ، البستاني ، دائرة المعارف ، مج8 ، مطبعة المعارف، بيروت 1884 ، ص 564.

([7])-صلاح الدين علي ، الشامي ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية ،منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1999 ،ص 11.

([8])-أبو الحسن علي بن الحسين ، المسعودي ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، تقديم : محمد السويدي ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1989، ج1 ، ص3.

([9])-أوكيل مصطفى ، باديس ،" دراسة في آراء و بعض مؤلفات أبو القاسم سعد الله" ، مجلة عصور جديدة ، عدد3-4 ،2011/ 2012 ،ص 227.

([10])-أبو القاسم، سعد الله ، منطلقات فكرية ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005 ، ص 45.

([11])-أوكيل مصطفى ،بادس ، المرجع السابق ، ص 227

([12])-أنظر السيرة الذاتية و العلمية لأبي القاسم سعد الله في كتاب : دراسات و شهادات مهدات لأبي القاسم سعد الله : جمع و إخراج ناصر الدين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،2000 ، ص21.

([13])-للاطلاع عل كامل تفاصيل سيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله العلمية بالغة العربية والإنجليزية ، راجع كتاب : دراسات وشهادات....، المرجع السابق ، ص ص **21-28**.

([14])- انظر : ناصر الدين، سعيدوني ،"معلمة تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبو القاسم سعد الله تعريف و تحليل" ، في كتاب دراسات.....، المرجع السابق ،ص **570**.

([15])-أو المندمجة. وهي تعابير و مصطلحات اختارها المؤلف قصد تبيان و إيضاح نشاط الإدارة الاستعمارية و تأثيرها في بنية المجتمع الجزائري للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج**6** ،ص ص **371.372.373**.

([16])-ناصر الدين ، سعيدوني ، المرجع السابق ، ص **571**.

([17])-نفسه ، ص **571**.

([18])-نفسه ، ص **573**.

([19])-تعتبر هذه الدراسات و التوجهات من أساسيات مصادر الأستاذ سعد الله و حيزا لا يمكن الاستغناء عنه. للمزيد راجع : ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص **574**.

([20])-نفسه ، ص **574**.

([21])-نفسه ، ص **574**.

([22])-نفسه ، ص ص **575-577**.

([23])-نفسه ، ص **578**.

([24])-نفسه ، ص ص **580-581**.

([25])-نفسه ، ص **582**.

([26])-أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج**2** ، ص **382**

([27])-نفسه ، ج**2** ، ص **383**.

([28])-حول حياة عبد الرزاق ابن حمادوش ، راجع كتاب : أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، عالم المعرفة ، الجزائر ن **2009** ، ص ص **170-179**.

([29])-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر .....، المرجع السابق ، ج**2** ، ص **384**.

([30])-نفسه ، ج**2** ، ص **385**.

([31])-نفسه ، ج**2** ، ص **388**.

([32])-نفسه ، ج**2** ، ص **389**.

([33])-للمزيد حول تفاصيل الرحلتين راجع : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ... ، ج**2** ، ص ص **390-393-394-395**

([34])-نفسه ، ج**2** ، ص **391**.

([35])-أبو القاسم ،سعد الله ، المرجع السابق ، ج**7** ، ص ص **460-461**.

([36])-نفسه ، ج**7** ، ص **461**.

([37])-نفسه ، ج**7** ، ص **462**.

([38])-نفسه ، ج**7** ، ص **464**.

([39])-و هو والد الأمير عبد القادر

([40])- أبو القاسم ،سعد الله ، تاريخ الجزائر.....، المرجع السابق ، ج**7** ، ص **465**.

([41])- للمزيد حول رحلاته راجع : أبو القاسم سعد الله ، ج**7** ، ص ص **465-466**

([42])-أبو القاسم ،سعد الله ، ج**7** ، ص **465**.

([43])-نفسه ، ص**466**.

([44])-نفسه ، ص **468**.

([45])- ذكر الأستاذ سعد الله بخوص هذه الرحلة على أنها لم تحقق في الجزء **7** من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي ، ص **468**. لكنها حققت و نشرت للمزيد حول تفاصيل هذه الرحلة راجع : العربي بن عبد الله المعسكري ، الحقيقة و المجاز في الرحلة على الحجاز ، تحقيقك مخلوفي ميلود المحفوظي ،ط**1** ، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، **2011**.

([46])-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر.....، المرجع السابق ، ج**7** ، ص **469**..

([47])-نفسه ، ج**7** ، ص **470**.

([48])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **471-472**.

([49])-نفسه ، ج**7** ، ص**473**.

([50])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **474-475**.

([51])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **476-477**.

([52])-نفسه ، ج**7** ، ص**478**.

([53])- للاطلاع على واقع الرحلات عند أبي القاسم سعد الله خاصة الرحلات الحجازية راجع : أبو القاسم سعد الله ، على خطى المسلمين حراك في التناقض ، عالم المعرفة ، الجزائر ، **2009**، ص ص **32-47**.